# الفصل السادس
## إدارة الصراع العربي الإسرائيلي

## ١ـ نحوادارة عربية حازمة للصراع مع إسرائيل

أزعم أن الوضع الراهن للصراع العربي ـ الإسرائيلي يحتاج إلى مراجعة جدية في ضوء ثلاثة عوامل أساسية تشكل الخريطة السياسية للموقف، العامل الأول : هو إسرائيل في عهد أرييل شارون، التي تقوم بإبادة الشعب الفلسطيني بقوتها العاتية، وتعلن رسميا أن سياستها هي اقتلاع أمل هذا الشعب في أية تسوية يكون طرفا فيها، وأن كل همها هو إسكاته إلى الأبد، وصور الإبادة لا تقع تحت حصار، ولاتحتاج إلى إثبات ركنها المادي الواضح وركنها المعنوي المعلن في صورة مشروع إجرامي متكامل يقوم على فرضية أن أمن إسرائيل لا يتحقق إلا باستبعاد الشعب الفلسطيني من الحياة، ولما كان هذا الشعب أجهده النضال وفترة عملية السلام، كما أن انكشاف أرضه وتواضع وسائل بقائه مقارنا بطغيان القوة الإسرائيلية أغرى إسرائيل به، فإن استمرار هذا الموقف يجعل خفايا الإبادة الإسرائيلية في اطراد،ويزيد إسرائيل رغبة في العربدة والتنكيل، حتى لمجرد التنكيل بالشعب الأعزل المرهق، وترتب على توحشها إعلانها في جسارة عجيبة أن الاغتيال والخطف وإسقاط السلطة الوطنية وتصفية قياداتها وهدم المنازل على رؤوس أصحابها هو الخط الرسمي لهذه الدولة المتوحشة.

يقابل هذا العامل الأساسي عامل آخر هو صبر الشعب الفلسطيني ومقاومته قدر استطاعته واستغاثته اليومية بالجميع لإنقاذه من المجزرة، واعتقاله في أرضه وتوسله للعالم العربي كي يفعل شيئا قبل فوات الأوان، ومحاولة السلطة تفويت الفرصة على إسرائيل وسياستها الذرائعية، والسلطة تعلم أنها مهما فعلت فإن إسرائيل ماضية في سياسة اقتلاع الشعب الفلسطيني وإبادته. وتتحلى السلطة ما استطاعت بضبط النفس لئلا ينعكس ضيقها على خطابها الرقيق تجاه إسرائيل والولايات المتحدة والعالم العربي، وتعلم قطعا" أن من قواعد اللعبة المحافظة على الخيط الرقيق الباقي في خيط معاوية، ومن ذلك الاستجابة لكل المبادرات الإسرائيلية سواء بوقف النار أوبالاتصالات الشخصية على مستويات مختلفة، أوباللقاءات الأمنية، وذلك كله تعتبره إسرائيل كسبا للوقت وتكريسا لخطة شارون المعلنة الهادفة إلى وقف أي رد فعل فلسطيني على صور الإبادة الإسرائيلية، وأن يسلم الفلسطينيون بأن تأمين المواطن

والجيش الإسرائيليين هدف أسمى يؤدي تحققه إلى التفات شارون حينئذ إلى البحث عن حل سياسي أيضا على الطريقة الإسرائيلية، فالسلطة والعالم يعرفان الآن أن شارون ليس صانع سلام وليس لديه مخطط سياسي لكنه متخصص في إعداد الضحية لكل الشروط في المحادثات السياسية، وأن ما يجري الآن من أعمال الإبادة هو تأكيد واستمرار للاعتقاد بأن الضحية لا تزال تقاوم شروط الجزار .ولا شك في أن الصورة الذهنية المتبادلة بين الفلسطينيين والإسرائيليين وحاجات كل طرف جعلت التعايش بينهم في المستقبل أكثر صعوبة وأكسبت دعاة التشدد مع إسرائيل الرهان والأرضية كما أظهرت عددا من الدروس المفيدة، لا وقت الآن لاستظهارها.

أما العامل الثالث : فهو العامل الخارجي، ويضم البيئة العالمية الإقليمية، وفي وسطها العربي، فالسمة الغالبة على هذه البيئة هي عدم الاكتراث وانتظار مشحون لنتيجة عملية الإبادة وفق سياسة معلنة لم يعد العالم يجد ما يدهش أو يؤلم في مشاهدها، لكن العالم العربي استراح إلى سلوك صار مألوفا من الحكومات والشعوب، فالحكومات استنفدت طاقاتها في إدانة إسرائيل واتخاذ القرارات التي تعتقد أنها ناجعة في ردعها، بل ظهرت نغمة إعلامية في العالم العربي إبان قمة عمان مفادها أن إسرائيل بدأت تبدي انزعاجا حقيقيا من فكرة دورية انعقاد القمة وتعافي الجامعة العربية، وأنها أعربت عن هذا الانزعاج من مجرد قرار القمة بتولي عمرو موسى أمانة الجامعة، كأنه عين قائد عاما لجيش الخلاص العربي، وسرى في الشارع العربي أن إسرائيل والولايات المتحدة ضغطتا ليترك عمرو موسى وزارة الخارجية، ولكنهما أصابهما الغم لاتساع ساحة عمله ضد إسرائيل بتعيينه أمينا عاما، وانطلقت شائعة قوية يومها بأن قمة عمان قاومت ببساطة الضغوط الأمريكية والإسرائيلية لتعيين موسى الذي ذكرت الإشاعة أن إزاحته من وزارة الخارجية كانت مطلبا ثنائيا مشتركا لضمان مرونة الخط المصري كعادته مع إسرائيل وتواطئه معها ضد الفلسطينيين، لكن إسرائيل فوجئت بخط أشد صرامة وبخطاب سياسي أكثر حزما، وإن كان أقل ضجيجا وصخبا .

وأشرت في مقال سابق : إلى اعتقادي بأن قرارات القمم العربية في معظمها غير قابلة

للتنفيذ لأنها صيغت على نحو خاص، وتهدف إلى غير أغراض النفاذ، وإلى إقناع الشعوب العربية بأن الحكومات تتقدم الصفوف في خندق المقاومة والصمود ضد إسرائيل، وعلى الجانب الآخر تدرك الشعوب العربية أن توحش إسرائيل ليس سببه تمزق العالم العربي، فهو ليس ممزقا بل مجمعا على ضرورة الانتقام لكرامته من إسرائيل، وليس سبب توحش إسرائيل هو ضعف الإمكانات العربية، فالعالم العربي يفوق أوربا في إمكاناته ويستطيع إن أراد أن يكون رابع قوة في العالم وأن ينافس اليابان في بعض المجالات لا أن يقنع بأن تتفرق دوله على ذيل قائمة دول العالم في التنمية البشرية ومؤشرات القوة المختلفة، وتدرك الشعوب العربية جيدا أن حكوماتها عجزت عن أن تترجم القدرات المادية والإمكانات المعنوية والثقل البشري وحجم الغضب العربي إلى سياسات حاسمة ضد إسرائيل، بل يدرك بعض شعوب الدول العربية أن مجتمعاته لا تمثل على المستوى الحكومي التمثيل الصحيح، وأن قدرات هذه المجتمعات لا تترجم إلى أداء يليق بها وأن هناك أزمة حادة في عملية الترجمة لا مفر من مواجهتها بعدما اتسع الخرق على الراتق .

وتدرك الشعوب العربية أخيرا أن عجز حكوماتها عن مواجهة إسرائيل على رغم الطاقات العربية ينال من شرعيتها السياسية مثلما تدرك أن الولايات المتحدة وهي تساند القمع الإسرائيلي تضمن مصالحها الواسعة على رغم ذلك في المنطقة العربية، وهي على يقين بأن صونها لا يحتاج إلى قوة إسرائيل، وإنما يقوم على تعفف العالم العربي عن المساس بهذه المصالح أو مراجعتها، وهذا التفاوت الهائل بين سلوك الحكومات وغليان الشارع ونظرته إلى الأداء العربي الرسمي على المستويات الفردية والجماعية قد يهدد في المستقبل الكثير من المسلمات في العالم العربي إذا استمر سلوك إسرائيل وإهاناتها المتواصلة لمجمل الذات العربية. وإزاء هذه الصورة المأساوية، ولئلا تتفاقم أحوال المنطقة وحرصا من الحكومات على مكانتها في المنطقة، ولئلا تستقيم أسطورة أن فناء الشعب الفلسطيني هو الثمن المنذور لبقاء بقية الشعوب العربية أو حكوماتها، نقترح انتهاج موقف يناسب الغطرسة الإسرائيلية والسلبية الأمريكية، وكنا قد اقترحناه عشية قمة عمان لولا أن القمة راهنت وخسرت الرهان لسوء الحظ على أن

شارون لَيْسَ بِهَذَا السوء، وأنَّ العالم العربي أصبح أضحوكة في نظر العالم، أوشك أنْ يَكُون الانتماء إلَيْهِ مدعاة للسخرية .

لا مفر مِنْ عقد قمة عاجلة تبحث فِي عدد مِنَ الإجراءات **أهمها الآتي :**

- عدم الاعتراف بحكومة شارون، وتجديد المطالبة بتسليمه ومحاكمته والسعي لدى الأمم المتحدة لتشكيل محكمة جنائية لمحاكمة المجرمين الإسرائيليين .
- الدعوة إلى عقد مؤتمر عاجل لأطراف اتفاقية جنيف الرابعة لمراجعة موقف إسرائيل ومدى انتهاكها لوضع السلطة المحتلة .
- الدعوة إلى طرد إسرائيل من الأمم المتحدة على أساسين : الأول : عدم احترامها شروط قبولها عضوا في المنظمة الدولية بموجب قرار الجمعية العامة الرقم ٢٧٣ العام ١٩٤٩ م، وأهمها قرار التقسيم وقرار عودة اللاجئين، ووضع دستور يؤمن حقوق الأقليات، والأساس الثاني : هو عدم احترام إسرائيل منذ قيامها أيا من قرارات الأمم المتحدة بموجب المادة السادسة من الميثاق.
- الدعوة إلى مراجعة جدوى المشروع الصهيوني، وما ألحقه من مآس بالمنطقة، ومراجعة تجربة قيام إسرائيل وكشف زيف هذا المشروع الإجرامي .
- الوقوف بحزم إزاء الموقف الأمريكي ومراجعته لأنه يغري الآخرين في العالم العربي ويخل بقاعدة التناسب بين مصالح العالم في المنطقة والمصالح العربية المقابلة . وأخيرا أخشى أن يؤدي تردد العالم العربي إزاء إسرائيل إلى مزيد من وحشيتها ومزيد من الفناء للشعب الفلسطيني وتراكم الإهانات للذات العربية.

## ٢ـ الدبلوماسية الهجومية والفراغ الدبلوماسي العربي

تواجه القمة العربية في بيروت مجموعة جديدة من التحديات التي تبحث عن مضاعفات أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١ م، وحصيلة هذه التحديات مرجعها إلى أن إسرائيل قد طورت دبلوماسيتها لتبرير برنامج الإبادة الذي تمارسه ضد الفلسطينيين. وقد تمكنت إسرائيل بالفعل من الترويج لهذا البرنامج وتحويل المواقف الدولية الأمريكية والأوربية المتعاطفة مع الجانب الفلسطيني إلى رصيد مؤيد للموقف الإسرائيلي في جميع تفاصيله، وهذه النقلة في المكاسب الدبلوماسية الإسرائيلية حولت إسرائيل من قوة باطشة معتدية إلى طرف يريد السلام والأمن لنفسه ولغيره، وتصوير هذا الطرف على أنه لا يمكن أن يقهر على الدخول في مفاوضات السلام تحت ضغوط الإرهاب، فأصبحت إسرائيل في نظر القوة الرئيسية الدولية هي الضحية لما أسموه : الإرهاب الفلسطيني، ومن حقها أن تتخذ ما تشاء في الدفاع عن نفسها، وبذلك ضمنت إسرائيل وقف الانتقادات الدولية التي كانت توجه في السابق إلى تصرفاتها اليومية وأهمها : إعادة احتلال الأراضي التي تحررت بموجب اتفاق أوسلو، والقيام باغتيال القيادات الفلسطينية الذين أعلنت أسماءهم على أنهم مطلوبون للعدالة الإسرائيلية، والقيام بأعمال منظمة لترويع الفلسطينيين في بيوتهم وهدم منازلهم والعبث بأرواحهم، وانتهاك أبسط قواعد القانون الدولي الإنساني من قتل للجرحى وتعمد منع وصول وسائل الإغاثة الطبية والإنسانية من الإسعاف والأغذية وغيرها، ودك المواقع والمساكن والأحياء الفلسطينية بمختلف أنواع الأسلحة بما في ذلك طائرات إف ١٦ وطائرات الأباتشي الأمريكية والصواريخ، وكأنما تواجه جيشا مقاتلا، والرد على أي عملية فلسطينية بعمليات هدم وقتل جماعية، وتقويض الأركان المادية للسلطة الوطنية الفلسطينية، والإعلان عن ذلك، ثم التراجع عنه لعدم جدواه، وعدم احترام متطلبات المبادرات الدولية ، ورفض الحديث عن مراقبين بينها وبين الفلسطينيين ؛ حتى لا يفضحوا سلوكها، واحتلال بيت الشرق في القدس، وتدمير مطار غزة، ومقرات قوات الأمن الفلسطينية، وأخيرا اعتقال عرفات في رام الله رهينة ؛ حتى يستجيب للمطالب الإسرائيلية

اللا متناهية والوهمية، وإذلال الشعب الفلسطيني، وزرع الألغام لقتل أطفال المدارس، وغَيْر ذَلِكَ مِنَ الجرائم الَّتي أبدعت إسرائيل فِي ممارساتها ضمن مخطط إبادة وإهانة الشعب الفلسطيني.

وقَد أضافت أحداث الحادي عشر مِنْ سبتمبر صفحة جديدة أشد خطرًا وهِيَ الانحياز الأمريكي والأُورُبِّي الكامل للموقف الإسرائيلي واعتباره دفاعًا شرعيًا عَنِ النفس مقابل اعتبار الموافقة الفلسطينية والرد الفلسطيني أيًّا كَانَ نوعه عَلَى الهجمات الإسرائيلية إرهابًا، ويجب تفكيك المنظمات الَّتي تعمل فِي مجال المقاومة والَّتي تدرج عَلَى القوائم الأمريكية والأورُبِّيَّة باعتبارها منظمات إرهابية يجب حظرها وتفكيكها وإغلاق مقارها وتجميد أموالها، وتجريم أنشطتها، وتعقب عناصرها، بَلْ والقيام بخطفهم إِلَى مصير مجهول مِثْلَمَا حدث مؤخرًا يوم ٢٠٠٢/١/١٥ م عِنْدَمَا خطفت إسرائيل الأمين العام الجديد للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بَعْدَ أنْ اغتالت الأمين العام السابق .

فالتحدي الأول : أمام القمة العربية مِنْ خلال هَذَا العرض يتحصل فِي عدد مِنَ البنود الَّتي يجب بحثها بدءًا باعتماد المنطق الإسرائيلي لَدَى واشنطن والاتحاد الأُورُبِّي، ومَا يترتب عَلَيْهِ وهُو نجاح دبلوماسيٌّ باهر لإسرائيل، وإطلاق يد إسرائيل فِي مصير عرفات والسلطة الفلسطينية ومؤسساتها وأعضائها .

وقد لوحظ أن المؤتمر الإسلامي الوزاري الطارئ في الدوحة في ديسمبر ٢٠٠١ م لم يعلق على منع إسرائيل لعرفات من مغادرة رام الله والاشتراك في هذا المؤتمر. ومعنى ذلك أنه لم يعد هناك أمام إسرائيل كما كان في السابق خطوط حمراء أوخضراء فيما يتعلق بمستويات التصرفات الخطرة، ولم يعد لها مرجعية سوى شهوة الانتقام والإبادة في صفوف الفلسطينيين .

أما التحدي الثاني : فيتمثل في نشاط الدبلوماسية الإسرائيلية لتحريض الولايات المتحدة على ضرب العراق والاحتكاك بإيران، وترشيح دول عربية أخرى للخضوع تحت ابتزاز الإرهاب وبذلك تضمن إسرائيل الإحاطة بالعالم العربي من كل جانب في البحر الحمر، والمحيط الهندي، والبحر المتوسط. ومعلوم أن الضغوط تتزايد على لبنان بسبب حزب الله الذي وضع

على القائمة الأمريكية للإرهاب، كما تتعرض سوريا لضغوط مكتومة بسبب بعض المنظمات الفلسطينية الموصوفة بالإرهاب على أراضيها. وقد لوحظ أن الولايات المتحدة تستجيب بشدة للتوجهات الإسرائيلية بحث أصبح الحديث عن دبلوماسية عربية في مواجهة الولايات المتحدة أمرا يستحق النظر الحاد مثلما هو مطلوب في مواجهة إسرائيل.

أما التحدي الاستراتيجي الثالث : فهو الموقف العربي الحقيقي من المقاومة الفلسطينية. فلا يجوز أن تتخذ القمة قرارات مساندة للمقاومة، بينما تتنصل من أية اتهامات إذا هي قامت بهذه المساندة ولو على استحياء، ولكن القمة هذه المرة سوف تواجه بضرورة تحديد موقفها من الطابع " الإرهابي " للمنظمات الفلسطينية المجاهدة التي تتعقبها إسرائيل، مثلما عليها أن تبحث بدقة بعض الجوانب الشائكة في العلاقة بين هذه المنظمات وبين عرفات الرهينة في منزله.

وأمَّا التحدي الرابع : فيتمثل فِي كيفية الرد عَلَى قدرة إسرائيل الفائقة عَلَى الاستفادة مِنْ جميع المناسبات وخلق التحالفات الَّتي جعلت العالم العربي – بَلْ دوله – جزرًا منعزلة وشلّت حركة هَذِهِ الدُّوَل حَتَّى فِي محيطها الإقليمي الضيق، ومثال ذَلِك التحالف الاستراتيجي الجيد بَيْنَ الهند وإسرائيل فِي مواجهة باكستان، ويتفرع عن ذَلِك عدد آخر مِنَ التداعيات مِنْ بَيْنِهَا إعلان تركيا وتسابقها عَلَى أنْ تلعب دورًا آخر فِي كُلِّ الأحوال معاديًا للمصالح العربية، خاصة وأنَّ تركيا تتهمها العراق بأَنَّهَا بدأت فِي غزو أراضيه، وترتيب أوضاعه الإقليمية انتظارًا لمرحلة مَا بَعْدَ ضرب العراق .

وأخيرًا ولَيْسَ آخرًا : تِلْكَ الهجمة الشرسة عَلَى الإسلام والمسلمين والَّتي تشترك إسرائيل فِي تحريكها حَيْثُ تتحالف مَعَ جميع الأطراف غَيْر الإسلامية ضِدَّ الأطراف الإسلامية، فَهِيَ حليف لروسيا فِي الشيشان، وحليف للهند ضِدَّ باكستان وإيران، وتسعى فِي تعقب الجماعات الإسلامية فِي البلقان، كَمَا تحاول أنْ تصور المقاومة الوطنية اللبنانية والفلسطينية ذَاتَ المنطلقات الإسلامية عَلَى أنَّهَا جزء مِمَّا تسميه الإرهاب الإسلامي .

ولا يخفى أن إسرائيل تتبنى استراتيجية شاملة لخنق العالم العربي والإسلامي، وتمكنت من المزج بين ثقافة السلام المناهضة للحروب وثقافة السلام المعادية للإرهاب والسامية إلى تنقية النفوس من الدوافع الدينية للأعمال الإرهابية. وليس سرا أن إسرائيل قد تمنت ذات يوم أن تقيم حلفا بينها وبين النظم في العالم العربي والإسلامي التي تواجه التحديات من بعض جماعات الإسلام السياسي كما يسمونها، والعمليات الإرهابية التي تقوم بها هذه الجماعات ضد هذه النظم. وكادت إسرائيل أن تقف في خندق واحد مع بعض هذه النظم لولا أن أوربا بدأت تحتضن هذه العناصر وتعتبر أعمالها يأسا من أزمة الديمقراطية في العالم العربي وتضييق فرص التعبير على مثل هذه القوى السياسية .

وأخيرا : فإنه في إطار هذا المناخ الملبد بالغيوم والأخطار تنعقد القمة العربية والسيف مسلط على رقاب المنظمة، وتتعرض بعض الدول العربية والإسلامية لضغوط عاتية، وتركت وحدها تواجه هذا الطوفان .وفي ضوء ما تقدم: فإن قمة بيروت مطالبة بأن ترسم للعالم العربي مكانه على الخريطة قبل أن يجرفه التيار ويصبح عقد قمة أخرى ترفا لا تحتمله خطورة الوضع وظلال الكارثة. وإذا جاز لنا الاجتهاد فيما يجب عمله والبحث فيه، فإننا نعاود الحث على العمل على محورين : أولهما : صوب إسرائيل، والآخر : صوب الولايات المتحدة .أما العمل صوب إسرائيل : فقد سبق أن افترضنا قبيل قمة عمان انتهاج دبلوماسية حازمة إزاء إسرائيل تبدأ برفض الاعتراف بشارون وحكومته خاصة وأن إسرائيل نفسها ضربت المثل ضد فالدهايم رئيس النمسا لمدة طويلة عندما قاطعته وفرضت ذلك على أوربا والولايات المتحدة عقابا للرجل على تعاونه – بحكم منصبه – مع الأمم المتحدة بشأن منظمة التحرير الفلسطينية. ونعتقد أن الحزم العربي مع شارون منذ البداية كان يمكن أن يجنب الفلسطينيين والعرب هذا الفصل من المأساة والإذلال .

وإزاء توحش إسرائيل ومساندة الولايات المتحدة بَعْدَ أحداث الحادي عشر مِنْ سبتمبر فَإِنَّهُ يُمْكِن النظر فِي انتهاج دبلوماسية نشطة لمقاومة الدبلوماسية الإسرائيلية، تبدأ بالعمل عَلَى طرد إسرائيل مِنَ الأمم المتحدة عَلَى أساس أَنَّهَا لَمْ تحترم أيًّا مِنْ قراراتها، وأَنَّهَا لَمْ تحترم شروط

الانضمام الثلاثية إلى المنظمة الدولية ، بل والقيام بحملة إبادة منظمة للشعب الفلسطيني ، وارتكاب أعمال الإرهاب التي تمارسها الدولة العبرية، والمطالبة بعزلها دوليا، والإلحاح على مناقشة الطابع الإجرامي لتصرفاتها في الجمعية العامة التي يمكنها أن توصي بفرض جزءات ضدها. ولا ضير من بحث فرص مقاطعة شاملة عليها وإعادة تقويم مصادر القوة والضغط لدى العالم العربي، ودراسة عدد من الإجراءات ضد إسرائيل، والعمل بجدية لدعم المقاومة الفلسطينية بكل الوسائل بما في ذلك المال والعتاد .ولا شك أن اتفاقية السلام بين إسرائيل من ناحية وكل من مصر والأردن لا تمنع كلا الدولتين من اتخاذ أية إجراءات من شأنها ردع إسرائيل دون أن يعد ذلك انتهاكا لهذه الاتفاقية. ذلك أن اتفاقات السلام لا يجوز أن تشل الطرف العربي المتعاهد بينما تطلق يد إسرائيل لإبادة الأطراف العربية. ولابد أن تفهم إسرائيل أن فلسفة هذه الاتفاقات أن تشجع الأطراف الأخرى على إبرام اتفاقات مماثلة حتى تتسع رقعة السلام الذي يظلل الجميع.

كما لابد أن يدرك العالم العربي أنه إذا كان هدف إسرائيل من إبرام هذه الاتفاقات هو تحييد الدول المتعاهدة ؛ حتى تجهز إسرائيل على الأطراف الضعيفة في المعادلة، فقد نجحت إسرائيل في ذلك ولابد للعالم العربي من أن يدرك حقا أن هذه السياسة سوف تنتهي بالسيطرة عليه وإعاقة سياساته والإضرار بمصالحه الحيوية. وتدرك القمة بلا شك أن سياسة المهادنة التي تمارسها – بكل رفق – الحكومات العربية إزاء إسرائيل جعلت المسافة هائلة بين شعور الشعوب المهانة وبين هذه المواقف الرسمية النظرية.

لقد ثبت أن إسرائيل لا تريد سلاما حقيقيا، ولذلك فإن خيار السلام الذي تصر عليه المنطقة العربية قد أغرى إسرائيل بكل ما هو عربي بحيث يصعب الحديث عن غلاة ومعتدلين، وهو الوهم الذي وقع فيه كثير من المثقفين العرب وساروا في طلبه ولا يزال يراودهم. أما الولايات المتحدة فقد كشفت عن سياستها الحقيقية، وتسعى إلى مساندة سياسة الإذلال الإسرائيلية، كما تسعى إلى استنزاف الطاقات العربية مع بالغ الاستهانة بالعالم العربي. فإذا وقف العالم العربي بحزم في وجه هذه السياسات وسعى إلى مراجعة هادئة للمصالح المتبادلة ونبذ البلطجة التي

تريد بعض الأوساط أن تكون نمط العلاقة السائد بين واشنطن والمنطقة .فهل يتحلى العرب هذه المرة بالشجاعة لبناء موقف عربي يعيد لهم ما بقي من كرامة، وتحقق الحكومات بهذا الموقف أمل الشارع العربي الذي أصابه القنوط وأرهقته الاحتجاجات، فضلا عما يعانيه في بعض الدول العربية .

## ٣ـ نحو إرادة عربية جادة للتعامل مع إسرائيل

استقر الآن لدى الجميع عدد من الحقائق التي لا تقبل الاختلاف بشأنها، أوالتكهن بمدى صحتها، بل إن ممارسة هذه الطقوس التقليدية في الترف الفكري العربي : كالاختلاف، أوالتكهن، أوتباين الآراء، أوغيره من فنون الجدل العقيم لم يعد يجدي سوى جلب المزيد من: البؤس، والهوان للمنطقة العربية كلها .

**الحقيقة الأولى** : أننا أمام مخطط صهيوني يمضي بطريقة لا يلوي على شيء ولا يحيد عن مقاصده، وهذا المخطط الذي رأينا تجلياته، رأي العين في عصر ثورة وسائل الاتصال لا يؤمن إلا بالقوة والقهر ولا يعبأ بسواهما، ولا يكترث لما يقال، أويكتب، فلا يؤمن بقانون أومجتمع دولي أومنظمات دولية على حد اعتراف نتانياهو( مقال بعنوان : القوة وحدها هي مفتاح النجاح – الهيرالد تريبيون ٢٠٠٢/٤/٨ م )، وهو نفس المنطق الذي ردده شارون والكتاب الصهاينة، على الأقل منذ اجتياح إسرائيل للأراضي الفلسطينية في ٢٩ مارس ٢٠٠٢ م، وقد أكد نتانياهو في مقالاته، وخلال حملته الإعلامية التي كلفه بها شارون في الولايات المتحدة أن أحداث انتفاضة الأقصى كشفت لإسرائيل أنها في خطر محدق، وأن مصدر الخطر هو الشعب الفلسطيني، الذي لا يشغله البناء، وإنما الهدم والحقد وتحطيم الحياة له ولغيره، ولا أدل على ذلك – في نظر هذا الفريق الصهيوني من العمليات الفدائية. كما دلل هذا الفريق على نفس الخط بعدد من الأحداث في قراءة خاصة لتاريخ الصراع. ويرى نتانياهو أن سحق الشعب الفلسطيني هو الحل الأمثل لتأمين إرادة الحياة عند شعب إسرائيل .

ومعنى ما تقدم، أن إسرائيل ليست مستعدة للحوار مع الفلسطينيين، ولا تؤمن بأن السلام والأمن للجميع، وإنما السلام والأمن والازدهار للقوي، وأن القتل والإرهاب وإلقاء الفزع في القلوب والتمثيل بالأحياء والأموات والبربرية المطلقة هي الوسائل المرافقة للقوة المطلقة .

**الحقيقة الثانية** : أن الاجتياح البربري للأراضي الفلسطينية قد تم تحت سمع وبصر الجميع، وجرت المجازر علانية ودفن الضحايا في مقابر جماعية، بينما الجميع يرفع حاجبيه

ويمصمص شفتيه ويحوقل من الدهشة والصدمة وجلال الموت الأسود الذي حل بالفلسطينيين. ومن الواضح أن إسرائيل لا تعرف أية كوابح سياسية أودينية أوأخلاقية، وبينما تراجعت أصوات الصليب الأحمر ومنظمات حقوق الإنسان، كما ضاعت سدى صرخات الضحايا الذي نسفت بهم منازلهم بأحدث ما أنتجته التكنولوجيا الأمريكية من أدوات القتك ووسائل التدمير. فقد أعملت إسرائيل القتل والتدمير في شعب أعزل واستهدفت العرق الفلسطيني أينما وجد، ولم نسمع سوى همهمات أوربية متقطعة تنم عن عدم المعارضة، ولم نسمع إدانة واضحة من منظمات حقوق الإنسان، ولا يفسر سكوتها المخزي ذاك إلا أنه إقرار بأن العرق الفلسطيني يستحق الاقتلاع، وأن قيام إسرائيل بذلك هو فرض عين في العالم كله ما دام اقتلاع هذا العرق على هذا النحو المخزي حقا يشبع النهم الصهيوني للدم الفلسطيني ويريح الآخرين من ملف ورط المنطقة كلها في صراع لا قبل للعالم كله به .

**الحقيقة الثالثة** : أن الاستخدام المطلق لكل صنوف القوة في أحط فصول الإبادة الإنسانية وبكل حرية وأمان حتى من اعتراض الدول المجاورة التي كبر على الضحايا حتى أن يلوذوا بها في لحظات الفراق الأبدي، تطلب أمورا عديدة من إسرائيل أولها : تأمين موافقة القطب الأمريكي الأوحد في النظام الدولي، وثانيها : تأمين صمت النظم العربية بلا استثناء، وثالثها وأهمها : الاستخدام الجسور للقوة في عملية جراحية مفتوحة على الهواء لكي تكون هذه العملية في كل العرق الفلسطيني اقتلاعا له وتأمينا لإسرائيل " من شروره " وزجرا لغيره من الشعوب المجاورة وإقرارا بأن إسرائيل هي الأوفى للتقاليد العربية التي عبر عنها أبو تمام: "السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب " .

**الحقيقة الرابعة** : أن تقاعس العالم العربي عن عدم مواجهة الحقيقة والتحدي الذي أعلنه شارون منذ تشكيل حكومة الوحدة الوطنية وتحفيه وراء أستار وحجج بالية مزقها شارون أيضا واستكثر على الحكومات العربية أن تتستر بأوراق التوت، كان رسالة واضحة بأن العالم يمر بمرحلة جديدة ليست مسبوقة في تاريخه، أهم خصائصها انفصام ذاته وانقسام مكوناته وهذا هو الأخطر : حكومات لديها حسابات فسرها شارون منذ البداية بأنها رخصة عربية للقتل،

وشارع عربي يشق طريقه ويأبى الإهانة الصهيونية الأمريكية، ويستصرخ حكامه أنْ يترجموا مشاعره المتدفقة إلَى سياسات عاقلة خاصة بَعْدَ أنْ دفع الشعب الفلسطيني ثمنًا فادحًا لِهَذِهِ الحكمة العربية البالغة ولحكماء العالم العربي .

**الحقيقة الخامسة** : لا يجوز أنْ نغمض العين ونتحلى بخطاب نتوهم أنَّهُ يجلب لَنَا عطف الرأي العام الدَوْلي لمجرد أنَّهُ انفعل بمناظر الإبادة الصهيونية، فالرأي العام العالمي والحكومات الغربية تقول بصراحة : إنَّ سياسة القوة الإسرائيلية هِيَ الخيار الوحيد المطروح، فَإنْ جنح العالم العربي إلَى السلام دُونَ القوة فلابد أنْ يَكُون سلامًا مهيض الجانب ووفْق مَا يجود بِهِ كرم العنفوان الإسرائيلي، فَلَمْ يَعُد يَخْفَى عَلَى الأحمق والمتعامي أنَّ إسرائيل مُنْذُ قيامها تعتمد اعتمادًا مطلقًا عَلَى القوة والبطش والإذلال وتتقدم كُلّ يوم بثقة نحو تحقيق مشروعها الكبير ومرحلته الأولى فِي فلسطين، ثُمَّ تنطلق إلَى بقية أهدافها فِي المنطقة كلها. ولا يَخْفَى أيْضًا أنَّ نجاح إسرائيل فِي برنامج الإبادة والإذلال بدعم أمريكي يرجع فِي معظمه إلَى مقومات العقيدة السياسية الإسرائيلية وعناصر القوة الذاتية ونظرتها الخاصة للعرب بشكل عام، كَمَا يرجع فِي البعض الباقي إلَى الواقع العربي الَّذِي يتطلب مراجعة جذرية عَلَى ضوء هَذِهِ التجربة القاسية .

**الحقيقة السادسة** : أنَّ المسيرات الشعبية العارمة فِي كُلِّ أرجاء العالم العربي، بَلْ والعالم كله لا يجوز أنْ تقرأ قراءة خاطئة أومبتسرة لأنَّهَا كالصداع، عرض لوجود مرض. فَقَد قرأتها إسرائيل عَلَى أنَّهَا دليل عَلَى استمرار حالة العداء لَهَا وعدم الفهم لمنطقها ؛ مِمَّا يعني فِي نظر إسرائيل أنَّ سياسة اللين مَعَ العالم العربي والاقتراب مِنْهُ تضر بأهداف إسرائيل الرئيسية — كَمَا يعني ضرورة أنْ تبذل إسرائيل جهدًا أكبر فِي العالم العربي لإقناع الشارع، كَمَا تحاول إقناع الحكومات بأهمية سياسة الْقَمْع ضِدَّ الفلسطينيين وبحقها المشروع فِي أعمال الإبادة، بَلْ رُبَّمَا ظنت إسرائيل أنَّ بعض الحكومات رتبت لِهَذِهِ المسيرات بديلاً عَنْ عجز الحكومات عَنِ اتِّخَاذ موقف مباشر قِبَل إسرائيل لولا جدية قوات الشرطة فِي التصدي لِهَذِهِ المسيرات مِمَّا يبرئ هَذِهِ الحكومات مِنْ هَذَا " الظن الأثيم " .

أمَّا الولايات المتحدة فَقَد اعتبرت هَذِهِ المسيرات تعبيرًا عاطفيًّا طبيعيًّا ينجلي خلال ساعات،

تَمَامًا مِثْلَمَا اعتبرت الحكومات العربية هَذِهِ المسيرات تفاعلاً مناسبًا مَعَ فظاعة مشاهد الإبادة بدم بارد، لَكِن هَذِهِ المشاعر لا يجوز أنْ تصل إلَى حَدّ المزايدة عَلَى وطنية هَذِهِ الحكومات، أوتضطرها تحت تأثير الانفعال إلَى اتِّخَاذ إجراءات قَد لا تَكُون محققة للصالح العام .

وبَيْنَ هَذَا وذَاكَ أشاعت إسرائيل أنَّ الدُّوَل والشعوب العربية الأخرى لا علاقة لَهَا بِمَا يحدث فِي فلسطين، وأنَّ ردود فعلها العاطفية تكشف عَنْ أنَّهَا لا تزال تعيش مرحلة الصراع مَعَ إسرائيل وأنَّ كُلَّ مَا قدمته إسرائيل مِنْ " تضحيات مؤلمة " كالانسحاب مِنْ سيناء لا جدوى مِنْهُ لبناء السلام مَعَ هَذِهِ الدُّوَل .

**الحقيقة السابعة** : المترتبة عَلَى مَا سبق مباشرة هِيَ أنَّ الشعوب العربية لَمْ تَعُد أسيرة التلقين الإعلامي أوالسياسي الرسمي، فَقَد انقسمت أمامها طرق الإعلام والمعرفة وأصْبَحَ الفاصل بَيْنَ رغبتها فِي الدفاع عَنِ الحقوق العربية بِكُلِّ السبل وبِكُلِّ الإمكانيات، وهِيَ مستعدة تَمَامًا لِذَلِكَ، وبَيْنَ قراءة الحكومات العربية لِهَذِهِ الرسالة، فاصلاً واسعًا يسمح بالكثير مِنَ الدروس والعبر، أولها : أنَّ هَذِهِ الشعوب أصْبَحَت طرفًا مباشرًا فِي قرار الصراع والسلام مَعَ إسرائيل والولايات المتحدة، وأنَّهَا استخلصت أنَّ وجود إسرائيل وطبيعة شعبها العنصري الملتف حول سياسة الإبادة لا يتفق مطلقًا مَعَ أغصان الزيتون الَّتِي تغطي العجز العربي، وأنَّ هَذِهِ الأغصان لا معنى لَهَا سِوَى الاستسلام لرغبات هَذَا العدو. وثاني هَذِهِ الدروس أنَّ أعين الشعوب قَد انفتحت أيْضًا عَلَى جوانب العجز والقصور الَّتِي تعتور النظم السياسية العربية وأداءها فِي الداخل والخارج، فَكَأَنَّمَا المواجهة فِي المستقبل بَيْنَ هَذِهِ الحكومات وشعوبها ستمتد عَلَى جبهة عريضة مِنَ القضايا تتقدمها قضايا الديمقراطية الْحَقَّة وحقوق الإنسان بَعْدَ أنْ أصْبَحَ واضحًا للعيان أنَّ نجاح إسرائيل فِي إذلال العالم العربي هُو نتيجة طبيعية لإذلال الفرد الوطني وإهدار حقه فِي الحرية بمقولات عرجاء بلغت أحيانًا حَدّ الاستخفاف بقدرات المواطن، مِثْل القول بِأَنَّ حرية الوطن مقدمة عَلَى حرية المواطن وغيرها مِنَ الشعارات الَّتِي أتقنها سدنة السلطة وكهان المعابد وحملة البواخر فِي كُلّ العصور .

والخلاصة أنَّ التحدي الَّذِي يواجهه العالم العربي مِنْ جانب إسرائيل يتطلب مراجعة للقوى

العربية، لا فرق بَيْنَ شعوب وحكومات، ويتطلب صحوة عربية حقيقية يقودها أبناء هَـذِهِ الأمـة الخالدة الَّذِينَ أبدوا استعدادهم المطلق للدفاع عَنْ كرامتها وتقدمها بدلاً مِنَ التسـابق عَلَـى إعـلان وفاتها وإعداد مواكب الجنائز وطقوس العزاء .

والحقيقة الأخيرة أنَّ الحظر يحيط بالجميع، ولَنْ يجدي أنْ تحتمي كُلُّ دَوْلَة داخل حدودها بجلدهـا تحـت دعـوى أنَّ الصـراع لا يخصـها، أوأنَّ معـاهدات السـلام أخرجتـها وحيَّدتـها، والمعاهدة فِي ذاتها كَمَا استهدفتها إسرائيل رخصة للأخيرة للمضي فِي تنفيذ برنامجها التوسـعي فِي المنطقة .

ومِنَ الخطر اعتبار الولايات المتحدة وإسرائيل وجـهين لعملـة واحـدة، فَذَلِـك هُـو مَـا تريـده إسرائيل، وإنَّمَا المصلحة لَنَا أنْ نعتبر واشنطن وتـل أبيـب متحـالفين فِـي لحظـة معينـة بسـبب الحيوية الإسرائيلية، والجمود العربي، ذَلِك أنَّ فكرة المجتمع الدَوْلي فكرة هلاميـة وترتبـط إلَـى حَدٍّ بعيد بالولايات المتحدة نَفْسَهَا، عَلَى النحو الَّذِي أكَّدَتْهُ بِحَقٍّ نيتا جولان Neta Golan فِـي مقالتها فِي الهيرالد تريبيون يوم ٢٠٠٢/٤/٥ م، الَّتِي تصف احتقار إسرائيل للقوانين والمقدسات جميعًا وتعبث بها بحرية دُونَ أنْ يكترث لها هَذَا المجتمع الدَوْلي الموهـوم. ويـترتب عَلَـى هَـذَا الوصف لعلاقة واشنطن بتل أبيب أنْ نعيد بجدية النظر فِي وضـع اسـتراتيجية حقيقيـة تضمـن اعتدال كفة ميزان القوى المختل بشدة ضِدَّ صالح العرب .

وأخيرًا، فَإنَّ إدانة الأعمال الاستشهادية الفلسطينية يعني الموافقـة عَلَـى كونـها إرهابًـا، ثُـمَّ الموافقة عَلَى تصدي شارون لَهَا بالإبادة، ومِنْ شأن هَذَا الموقف أنْ يناقض بَعْدَ ذَلِك أيَّـة إدانـة للسياسات القمعية البربرية لإسرائيل. وهَذِهِ هِيَ الصيغة الذكية الَّتِي توصل إلَيْـهَا مؤتمـر مدريـد الربـاعي فِـي ٢٠٠٢/٤/١ م، وهِـيَ " إدانـة الإرهـاب " الفلسـطيني، وعـدم إدانـة الإبـادة الإسرائيلية، وإنَّمَا كان الأجدر هو القفز فوق هَذِهِ النقطة والمطالبة بانسحاب إسرائيل مِنَ المنـاطق الفلسطينية .

## ٤ـ الإدارة الإسرائيلية للصراع والحاجة إلى مركز عربي لإدارته

لا بُدَّ مِنَ الاعتراف، بأَنَّ العالم العربي يواجه تحديًّا حقيقيًّا لوجوده ووضعه فِي المنطقة حربًا أو سلمًا، وهُو إسرائيل. فَهَذَا العالم مطالب باللحاق بركب الحضارة الحديثة بعقلية جديدة، وتحديث حقيقي لمجتمعاته، ترسخ الأصيل فِي قيمه، وتدخل مَا يضمن لَهُ الانطلاق. ولَكِنَّهُ مواجه مِنْ ناحية أُخْرَى – بدرجة أوبأُخْرَى – بوجود إسرائيل الَّتِي تعتبر أنَّ ازدهارها ونموها لا بُدَّ أنْ يَكُون عَلَى حساب العالم العربي، وأنَّ نهضة العالم وتقدمه هُو تهديد لَهَا، ولِذَلِكَ تعمل عَلَى إجهاض نهضته، ووقف نموه، بَلْ وإرجاعه إلَى الوراء عددًا مِنَ العقود. لَيْسَ هَذَا افتراضًا أوتعبيرًا عَنْ ضيق بإسرائيل ومخططاتها الَّتِي ضمن بِهَا الغرب تخلف العالم العربي، وتقطيع أوصاله، ولَكِنَّ نظرة واحدة عَلَى آثار الصراع مَعَ إسرائيل مُنْذُ قيامها، حَتَّى الآن تظهر أنَّ العالم العربي قَد خصص معظم موارده، وبدد بعضها الآخر فِي إطار هَذَا الصراع .

وعِنْدَمَا اعتقد العالم العربي أنَّ الموارد المخصصة للصراع، يُمْكِن إعادة تخصيصها فِي السلام، اكتشف أنَّهُ واهم فِي عملية إعادة التخصيص، وفِي نوع السلام الَّذِي يُمْكِن أنْ يحصل عَلَيْهِ، وأنَّهُ بإزاء سرطان قاتل يتظاهر بحبه للحياة، ولَكِنَّهُ يسعى إلَى إفناء وإذلال غيره، وكَأَنَّ الدنيا لا تحتمل حياة آمنة للجميع كَمَا يقضي منطق العقلاء. ولا بُدَّ مِنَ الاعتراف مِنْ ناحية أُخْرَى بأَنَّ العالم العربي لا يدرك خطورة التحدي، الَّذِي تمثله إسرائيل، فَلَمْ يلق بالاً إلَى أنَّ التعامل مَعَ إسرائيل تحت أي عنوان يتطلب يقظة، كَمَا أغفل إدارة العلاقة مَعَهَا، بِمُلَمَا تجاهل الإلمام بالمنطق الإسرائيلي، ومفردات الخطاب الإسرائيلي الواضح، الَّذِي يتسم بدرجة عالية مِنَ الاستثمار العقلي والفكري، إزاء عالم لا يعترف بقيمة العقل، ولا يحتفل بإنتاج الفكر وتوجيهه. يترتب عَلَى ذَلِك أنَّ العالم العربي لا يكترث لمفردات الخطاب الإسرائيلي، كَمَا لا ينتبه إلَى طريقة إدارة إسرائيل لعلاقتها مَعَ العالم العربي، وخاصة فِي المدى البعيد، وعَلَى مستوى الأحداث والأزمات .ولا بُدَّ مِنَ الاعتراف مِنْ ناحية ثالثة، بأَنَّ نتيجة الصراع مَعَ إسرائيل هِيَ دَائِمًا لصالح إسرائيل، سواء اتَّخَذَ النزال صورة السلام، أو تَمَّ النزال فِي ساحات المعارك، كَمَا أنَّ قدرات العالم العربي الفائقة فِي السكان والمساحة، وإمكانات النمو والقدرات

العسكرية والدبلوماسية لَمْ تستثمر ولَمْ توجه توجيهًا صحيحًا، ولَوحدث ذَلِك ولَو بنسبة بسيطة، فسوف يَكُون للمنطقة وجه آخر، ولَكِن ذَلِك لَنْ يَتِمّ مَا لَمْ تستفد الدَّوْلَ العربية مِنْ أفضل طاقاتها البشرية، وأنْ يتصدر صفوفها أفضل أبنائها وأقدرهم عَلَى فهم متطلبات نجاحها.

والأمثلة عَلَى طرق الإدارة الإسرائيلية لا تُحْصَى لأنَّهَا تتعامل مَعَ كُلّ موقف بشكل يناسبه وفْق مصالحها. وقبل أنْ نضرب المثل يجب أنْ نستدرك بأَنَّ صناعة القرار فِي إسرائيل تتمتع – دُونَ غيرها مِنَ الدُّوَل وخاصة العربية – بميزات نادرة، وأولى هَذِهِ الميزات الاتفاق العام بَيْنَ الشعب والحكومة عَلَى الهدف النهائي، ويَكُون الاختلاف عادة قاصرًا عَلَى مَدَى ملاءمة القرار لتحقيق هَذَا الهدف. وبَيْنَ الهدف ووسيلة تنفيذه وتحقيقه، وقعنا فِي فخ تصنيف الأطياف السياسية فِي إسرائيل، فكلهم فِي مركب واحد يهمهم جميعًا سلامته مِنْ وجهة نظرهم. وثاني هَذِهِ الميزات المحققة للقرار الإسرائيلي، أَنَّهُ ضمن ضمانًا مطلقًا – مَعَ استمرار المتابعة والاطمئنان مساندة واشنطن، الواضحة المطلقة. ولِهَذَا الاعتبار آثار لا تُحْصَى فِي دوائر صناعة القرار فِي كُلّ دُوَل العالم والمنظمات الدَوْلية ، مِثْلَمَا ضمن استحالة التقارب العربي الأمريكي عَلَى حساب إسرائيل، أوقفزًا فوق العامل الإسرائيلي. ومِنْ شأن هاتين الميزتين مَعَ الاستفادة مِنْ أفضل العقول اليهودية فِي الداخل والخارج– أنْ يتمتع القرار الإسرائيلي بالمرونة اللازمة وحرية الحركة المطلوبة، دُونَ أنْ يقيد نفسه بقانون أوأخلاق أومحاذير .

ولنضرب المثل الأول، بقضية تيري لارسن النرويجي، مبعوث الأمين العام للأمم المتحدة، الَّذِي أزعجه مَا رآه مِنْ فظائع فِي مخيم جنين، فنطق بمَا رَأى. وقدرت إسرائيل أنَّ مكانة الرجل فِي الأمم المتحدة تجعل لشهادته الأثر المدوي فعمدت إلَى إسكاته والخلاص مِنْهُ. ولإسرائيل تاريخ طويل فِي هَذَا الباب، فَقَد سبق لَهَا أنْ تخلصت مِنَ الكونت برنادوت عِنْدَمَا كتب للأمين العام مَا لا يرضي إسرائيل، ودبرت لفالدهايم نظير موقفه العادل مِنْ منظمة التحرير فِي أواسط السبعينيات، مَا أدَّى إلَى تجميده خلال رئاسته للجمهورية النمساوية وخروجه مِنَ الحياة السياسية. وتقوم خطة إسرائيل ضِدَّ لارسن عَلَى الإعلان رسميًّا، بِأَنَّ الحكومة تدرس قرار طرده بصفته شخصا غير مرغوب فيه، فيعلن بيريز في نفس الوقت

اعتراضه على هذا الإجراء ؛ لأنه يعلم أنه سيضر بإسرائيل، وأنه قرار غير مسبوق في تاريخ المنظمة الدولية ، ثم يصرح بيريز بأنه يعتقد أن لارسن قد أصبح يعي تماما خطأه المؤلم والقاتل تجاه إسرائيل، وأنه صديق حميم لإسرائيل، ولا يجب الإساءة إليه ؛ لأنه قد يتعهد بألا يرتكب هذا الخطأ القاتل مرة أخرى .

في ذات الوقت تنشر الصحف الإسرائيلية أن مركز بيريز للسلام منح لارسن وزوجته جائزة؛ بسبب جهوده الممتازة في التوصل الى اتفاق أوسلو الشهير عام ١٩٩٣ م، وقيمة الجائزة مائة ألف دولار، ثم توحي الأوساط الصهيونية في النرويج إلى حكومتها، فتعلن وزارة الخارجية النرويجية، أنها تجري تحقيقا فيما تردد أن لارسن تقاضى مبالغ كبيرة دون إذن من حكومته. ولن يشفع ما أكده لارسن بعد ذلك من أنه لم يتهم إسرائيل، ولكنه وصف ما رأى، وسوف تعمل إسرائيل على دفعه إلى الاستقالة، أوالتخلي عن مهمته أوتوريطه في تحقيقات في بلده، أوتعمل على اغتياله .

ولا شك أن تجاسر الرئيس السابق للجنة الدانماركية للصليب الأحمر، عضو لجنة تقصي الحقائق في جنين، على وصف ما حدث في جنين بأنه زلزال قد دفع إسرائيل إلى استبعاده من عضوية هذه اللجنة. ولجنة تقصي الحقائق هي المثال الثاني لطريقة إدارة إسرائيل للصراع مع العرب، فهي تريد أن تفعل ما تريد، وتحصل على كل شيء دون أن تقدم شيئا، وتعادي كل من ينتقد منطقها أويذكر فعلها بسوء .

تبدأ قصة لجنة تقصي الحقائق، بما تردد كالزلزال في العالم كله، بعد انسحاب القوات الإسرائيلية من مخيم جنين، ليقف العالم على أعمال إبادة لم يسبق لها مثيل، وعلى تدمير متعمد لكل شيء وكل كائن حي. ولم يكن ممكنا السكوت، فقدمت المجموعة العربية عن طريق سوريا العضو العربي الوحيد في مجلس الأمن حاليا مشروع قرار لتشكيل لجنة تحقيق، وأعلن رئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر الذي أطلعته بعثته في فلسطين على المأساة، أن لجنة التحقيق لا بد أن تعمل بأسلوب التحقيق الذي سبق للجنة إبادة الجنس في يوغوسلافيا أن طبقته. ولكن واشنطن التي باركت الإبادة الإسرائيلية وعدت شارون بصفته رجل السلام لهذا

العام، رفضت في البداية مجرد السماح بعقد مجلس الأمن، وكأنه أصبح جهازا أمريكيا، ثم سمحت بعقده محذرة من استخدام الفيتو ضد كل ما يمس إسرائيل، وكلما وجدت الضغط الأوربي عاليا، قررت مع إسرائيل إعداد سيناريو لامتصاص النقمة واحتضان العاصفة وتفريغها من قوة دفعها، وهذا بالضبط هو المعنى العالمي لإدراة الأزمة. فقادت واشنطن نفسها الحملة في مجلس الأمن، وقدمت مشروع قرار حصل على الإجماع، وأصبح القرار رقم ١٤٠٥ في ٢٠٠٢/٤/١٩ م، والتفصيل في هذه الوقائع مهم ؛ لأنه يقدم تأريخا حيا لوقائع لا يجوز أن تسقط من سجلاتنا أوتفلت من ذاكرتنا. والقرار في صياغته لا يتمشى مع فظاعة المأساة، فينص في فقرتين عاملتين على الحاجة الملحة لوصول المنظمات الطبية والإنسانية إلى السكان المدنيين الفلسطينيين، ثم يرحب بمبادرة الأمين العام ؛ للحصول على معلومات دقيقة To develop accurate information حول " أحداث أخيرة " في مخيم جنين للاجئين من خلال فريق لتقصي الحقائق، ويطلب المجلس من الأمين العام أن يظل المجلس على علم.

والملاحظ أن القرار لم يذكر إسرائيل بالاسم في أي من فقراته، وعبر عن الموقف بحذر بالغ، دون وصفه أوتصوير بشاعته، ولم يكلف اللجنة والأمين العام بعرض النتائج على المجلس في وقت محدد لكي يتخذ المجلس موقفا محددا، ولم يحدد المجلس طبيعة مهمة اللجنة رغم تواضعها من لجنة تحقيق إلى لجنة تقصي الحقائق .

وخلال مناقشة المجلس لهذه المسألة حضر وزير خارجية إسرائيل وأعلنت واشنطن أن القرار صيغ بالتفاهم الكامل، والمشاركة التامة مع إسرائيل، فكأنه قرار لإبراء الذمة، ولا يحتوي على أية دليل على نية في عمل لاحق، وأعن بيريز أن بلاده ترحب بهذا الفريق، ثم صدر عن شارون بيان بأن الحكومة سوف تتعاون تماما مع الفريق في نفس الوقت، وفور إعلان تشكيل الفريق استبعدت إسرائيل عضوين من الأعضاء الثلاثة، واتهمتهما بالتحيز، وطالبت بتشكيل خاص للفريق، يضم خبراء مكافحة الإرهاب، وعسكريين أمريكيين، ثم تطلب بريطانيا وأمريكا من إسرائيل قبول اللجنة والسماح لها بالعمل " لأنه لا دليل على ارتكاب مجازر في جنين"، أي أن أمريكا وبريطانيا أعلنتا للجنة ما يجب أن تعلنه مسبقا، مثلما تريد إسرائيل، وهي

الطرف الجاني، أن يشكل لنفسه محكمة على هواه، وأن يصوغ لها الحكم الذي يروق لها .

معنى ذلك أن إسرائيل تعتزم إدارة هذه القضية بحيث تكون النتيجة في حدها الأدنى عدم التشهير بإسرائيل المهددة، كما يقول البعض، بفضيحة معنوية تاريخية رغم أن ذلك لا يهمها؛ لأنها تغذت على دماء الفلسطينين، وتزدهر بأشلاء الضحايا، وأما حدها الأقصى، فهو أن تحقق منها مكاسب سياسية، وتحول ضحاياها إلى دائرة الاهتمام، فهم عندها الشهداء بينما الفلسطينيون القتلى نالوا ما يستحقونه ؛ بسبب طبيعتهم ( الإرهابية ). وإذا تمكنت إسرائيل من تسليط الضوء على قتلاها دون المحرقة الفلسطينية، وسحبت البساط لصالحها، فكيف تفسر إسرائيل الوحشية، التي تم بها القتل والإبادة الجماعية، للعرق الفلسطيني كله، دون تمييز ودون محاكمة ؟ ،وكيف تفسر الاعتداء على وسائل الإنقاذ والإسعاف للجرحى، ودفن القتلى وقطع وسائل الحياة عن كل الأحياء من الآدميين والحيوانات ؟ وكيف تفسر التدمير الوحشي الهمجي للأماكن والملفات ومؤسسات السلطة وإفناء الشرطة وأجهزة الإدارة ؟ ؛ إلا أن يكون ذلك جزءا من مخطط الإبادة الشامل، بما في ذلك الذاكرة الفلسطينية، حتى يستحيل التحقيق في المجازر، ومعرفة أسماء الشهداء، والأماكن، وطمس الأدلة، فتعيد تسمية من بقي من المحرقة بأسماء خاصة كودية، كما تسمى الشوارع الجديدة بأسماء يهودية، تحت إدارة مدنية يهودية، وتعيد الأمور إلى ما قبل عملية السلام، بما في ذلك ضياع دماء الشهداء، وطمس صفحات البطولة النادرة، ضد هذا العدو الغاشم .

والمثال الثالث، لاحظت إسرائيل تنامي مشاعر العداء ضدها ؛ بسبب أعمال الإبادة التي يقوم بها الجيش الحكومي ضد الفلسطينيين العزل وشعور العالم كله بالعجز والقهر ؛ بسبب مساندة واشنطن لطغيان القوة، وقلب الحقائق ؛ ولذلك وبدلا من أن تهاجم أوربا وتتهمها بالتهمة التقليدية، التي لا معنى لها، وهي معاداة السامية، وتشكو أوربا في الولايات المتحدة، عليها أن تواجه الحقيقة، وتصلح سياستها وقصدها، بدلا من التركيز على التفنن في خطابها وإحكام إدارتها لأزمات متلاحقة، سوف تطوق عنقها وتقوض ما تحرص عليه في وجودها، وهو انكشاف الطبيعة البربرية والعنصرية لشعب نشر الخراب في المنطقة وتسبب في تخلفها عدة

عقود، وبدد مواردها جريًا وراء سلام زائف، ولَنْ يجدي مَعَهَا إنشاء مركز لاحتواء معاداة السامية فِي أوربًا، كَمَا تفكر الآن .

وفِي ضوء مَا تقدم، فَإنَّ السلام الإسرائيلي لَنْ يلتقي مَعَ السلام العربي إلاَّ إذَا توازنت القوى، ولَنْ يتحقق ذَلِك إلاَّ بإنشاء مركز عربي متخصص فِي إدارة الصراع مَعَ إسرائيل، يضم خيرة عقول الأمة، ويضع السياسات، ويقدم التوصيات، ويستثمر موارد الأمة ؛ فِيمَا يحقق لَهَا النصر عَلَى هَذَا العدو، الَّذِي تسلح بالعقل والدهاء. وإذَا كَانَ مِنْ حسن حظه أنَّهُ يواجه عالمًا عربيًّا فاقد الوعي، وفاقد الاتجاه، فَإنَّ الانتباه إلَى ضرورة إدارة العلاقة مَعَ إسرائيل بِهَذِهِ الطريقة العلمية، هِو الكفيل بأَنْ يَكُون العالم العربي نِدًّا قويًّا وشوكة معتبرة فِي صراع، سَوْفَ يستمر مَا بقيت إسرائيل .

ولا يجوز أنْ يفهم العالم العربي أنَّ السلام مَعَ إسرائيل هُو الأساس، وأنَّ الصراع هُو البديل، بَلْ لابُدَّ أنْ يدرك أنَّ السلام جزء مِنَ الصراع، وأنَّ الأصل هُو الصراع، وأنَّ السلام هُو إحدى أدوات الصراع، حَتَّى تتكافأ القوى، فيسود السلام العادل، وأنَّ العلاقات الدَوْلية مزيج مِنْ صور الصراع، وصور التعاون، ولا يُمْكِن اختزالها إلَى حرب أو سلام كَمَا كَانَ يفعل دارسو القرن التاسع عشر .

## ٥ـ نحودبلوماسية عربية جديدة إزاء الولايات المتحدة

يقتضى حسن السياسة أن نفرق الآن بين ما سبق كارثة الثلاثاء ١١ سبتمبر وما يجب أن يلحقها في سياق السياسة الأمريكية. فلا شك أن النقد العربى للسياسة الأمريكية السابقة انصب على الانحياز الأعمى لإسرائيل؛ مما شجع إسرائيل على تجاوز كل الخطوط إلى حد الافتخار بدقة عمليات الاغتيال بالطائرات الأمريكية ونشر قوائم الاغتيال والمجاهرة بأنها سياسة رسمية للدولة العبرية، التى لا تزال تطالب برؤوس وبتعويضات عن مرحلة الهولوكوست.

أما ضرورة التفريق بين العهدين، ما قبل الكارثة وما بعدها، فهي تكمن في افتراض أن واشنطن وقد عانت مرارة الهزيمة وألم الجراح لابد أنها سوف تبحث فى ذاتها وتصحح مواطن القصور فيها سواء فى كفاءة أجهزتها التى قد تظهر التحقيقات أنها متورطة فى هذا المخطط الأسود، أوفي نظرتها إلى وظيفة القوة في عالم اليوم وآداب السلوك التي يجب أن تتحلى بها دولة قدر لها أن تتربع وحدها على قمة النظام الدولى وأن تعلن سياسات لا تليق بمثل هذا المركز الرفيع؛ مما جعل مؤهلاتها في جانب وحسن استخدام هذه المؤهلات على الجانب الآخر.

ولكي نشجع الولايات المتحدة على المراجعة فى الفتره القادمة فلا بد أن نسلك معها سلوك الصديق المخلص لها والحريص على مصالحها ما دامت الصهيونية العالمية قد أعمتها عن أن ترى هذه المصالح أو مارست على أبنائها الإرهاب. حتي لا ينطقون أويحتجون؛ فحرية المجتمع الأمريكى وقدرته على تقرير ذاته والتعرف على مصالحه الحقيقية والنظر إلى العالم بنظرة القوة العظمى الرئيسية فيه تتطلب حشد الأصدقاء الذين يمسحون بحق على جراح العملاق الجريح ويضمدون هذه الجراح ثم يستبصرون معها طريق الغد.

ولدينا عدد من الأسباب التى تجعل الاستثمار الدبلوماسى مع الولايات المتحدة ومواجهة إسرائيل فى داخل المجتمع الأمريكى من الوجاهة والقوة بما يكفى للتوجه إلى المستقبل باستراتيجية نشطة.

وأول هذه الأسباب أن الولايات المتحدة ستظل قوة عظمى رئيسية إلى أمد غير منظور وهى ومهما تأثرت سلبًا وتأثرت مكانتها وقدرتها على التأثير من تداعيات يوم الثلاثاء الأسود، فالذين خططوا له أرادوا أن يضربوا عدة عصافير بحجر واحد، فهم أرادوا أن يظهروا أن للقوة والغطرسة حدودًا حتى ظن البعض أن الفعلة ملائكة وأن تلك ضربة إلهية تنفيذًا للآية الكريمة (أتاها أمرنا ليلاً أو نهارًا). وأما السبب الثانى لضرورة بناء دبلوماسية عربية جديدة فهو أن واشنطن ستظل أقوى المؤثرين على إسرائيل التى تتحرك على مساحة واسعة لاستقطاب كل القوى الجديدة المرشحة للتأثير على الساحة الدولية ومحاصرة العالم العربى القانع بما هو فيه.

والسبب الثالث أن استمرار الصراع العربي الإسرائيلى على هذه الوتيرة سوف ينتج آثارًا خطيرة على المنطقة ليس أقلها أن استمرار الإنحياز الأمريكى لإسرائيل والضغط الأمريكى على الحكومات العربية والإذلال الإسرائيلى للفلسطينيين ومن ورائهم المنطقة العربية كلها سوف يولد إحباطًا متزايدًا لدى الشعوب التى لاتراهن واشنطن كثيرا عليهم، كما ستولد حقدًا متناميًا على الحكومات العاجزة عن الأداء الداخلى والفعل الخارجى، وعلى الولايات المتحدة مما يدفع إلى مزيد من خضوع الحكومات للإملاءات الأمريكية طلبًا لحماية واشنطن ضد شعوبها ولن تكون هذه الحكومات بمفازة من حساب هذه الشعوب والأطفال.

ومعنى ما تقدم أن الحكومات العربية العاجزة عن مواجهة اسرائيل والمعرضة للضغوط الأمريكية سوف تقع إن عاجلا أوآجلا بين المطرقة وهى هذا العجز والخضوع والسندان وهو ضغوط الشعوب العربية مما يفرخ موجات من الإرهاب لانسداد منافذ التفاعل بين الحاكم والمحكوم واطراد أزمة النظام وعجزه، فيكون تعاون هذه الحكومات مع الغرب عربونًا لتخلي الغرب عن " العناصر الإرهابية " التى كان يستخدمها مثلما استخدم حقوق الإنسان وغيره من الشعارات فى سياساته إزاء المنطقة العربية ولأغراض سياسية محددة. وتلك نتيجة يجب أن نحذر منها منذ الآن فالوطن هو الباقى والأقدر على خدمته ومعرفة قدره من أبنائه الذين هم الأولى بالبقاء والارتقاء، وأما زج الغرب فى تحالفات لا تفيد سوى المصالح الغربية فهو فى نهاية المطاف خيانة لهذا الوطن.

ويبدو لنا أن المخارج الجوهرية للخروج من هذه الدائرة الجهنمية هو حشد الطاقات العربية الرسمية والشعبية في دبلوماسية تقدمية شاملة جديدة تستوعب هذه الحقائق الداخلية والخارجية وتعمل على أساس علمي مدروس لاستشراف فرص المستقبل الأفضل وعدم تبديد الطاقة في معارك وهمية داخلية تجر المنطقة إلى مزيد من الهوان.

وتقوم الدبلوماسية المقترحة على محورين: الأول صحوة ديمقراطية في الداخل تدفع بكل قوى الأمة نحو البناء والمشاركة كل بحسب طاقاته الحقيقية واحترام كامل لحقوق الأفراد في كل المواقع. المحور الثاني هو التوجه نحو الولايات المتحدة بسياسة رشيدة تنهض على الركائز الآتية:

*الركيزة الأولى:*

إسقاط أقنعة الوهم المتعددة بعدد أضلاع نجمة داوود والتي نجحت اسرائيل في بيعها للعالم كله. وأول هذة الأوهام أن اسرائيل حليف استراتيجي للولايات المتحدة. وتحت هذا الستار ابتزت إسرائيل الولايات المتحدة وقدمت نفسها وهمًا بأنها تارة حامية المصالح الغربية ضد الخطر الشيوعي في المنطقة وخط الدفاع الأول عن الغرب ضد أي مواجهة مع الشيوعية، وتارة أخرى حامية المصالح الغربية ضد التطرف القومي والديني وتيارات الاستقلال عن الغرب والقيام بدور الوكيل عن الاستعمار مثلما أشار بحق عالم اللغويات اليهودي الأمريكي الشهير ناعوم تشومسكي في مقال نشر مؤخرًا. كما قدمت إسرائيل نفسها نموذجًا للمجتمع الديموقراطي والداعية إلى نشر الديموقراطية في الصحاري السياسية العربية ومندوب الغرب في مهمته المقدسة.

وقد بلغت المأساة مهمتها في عدد من الصور والإشارات التي يجب أن تستفز المفكرين العرب وتستنفر غيرة الحكومات العربية من بينها أن شارون قد نصب تينيت حكمًا للقول بتوفر شروط تطبيق الخطة، وأن تحليل شارون لأحداث المنطقة هو المعتمد لدى صانع القرار الأمريكي وكل محاولة مصيرية أوعربية لتبديد هذا الوهم لدى واشنطن واجهت الرفض والحرب، بل

والاتهام بالتحريض على تصليب الموقف الفلسطيني وتعويض خطة شارون التى باركتها واشنطن فى أن إبادة الفلسطينيين سوف ترغمهم على الركوع وتجعل الحديث مع رموزهم عن شروط الاستسلام وليس شروط السلام .

ومن هذه الصور أيضا أن شارون صار يتحدث عن معسكر الأشرار والأخيار وأنه له الحق فى فرزهم وتصنيفهم، وأن الدماء التى تقطر من يديه ليست دليلا على الجرم المشهود والدليل الدامغ على ضرورة محاكمته بكل صنوف الجرائم، وإنما هى تطهير لكل آثام البشرية.

ومن السهل على الجانب العربى أن يسجل آثام شارون ومن سبقه ويقدمها للولايات المتحدة فى المرحلة القادمة ليثبت لها أن الدول العظمى لا تستمد عظمتها فقط من مصادر القوة المادية، وإنما تستمدها حقا من القيم الأخلاقية التى تحميها هذه المصادر، فيصبح شارون بذلك غير مؤهل للتحالف مع واشنطن بهذا الفهم الصحيح، بل يصبح عبئا على الضمير الأمريكى وقيم المجتمع الأمريكى العظيم الذى قاد مسيرة مظفرة نادرة عبر تاريخه القصير وقدم نفسه للعالم على أنه حصن الحريات وموئل العدالة، ولا بد أن يسخر قوته فى تحقيق هذه الغايات النبيلة حتى يكون سلطانه على القلوب وليس على الحدود.

*الركيزة الثانية :*

أن إسرائيل التى أوهمت واشنطن عبر العقود الأربعة الماضية بهذه المزاعم السالف الإشارة إليها بأنها "حليف استراتيجى " ليست سوى " عبء استراتيجى" يتحمل تبعته دافع الضرائب، كما يتحمل وزر أعماله الشائنة كل أمريكى فى كل مكان، ومن غير العدل أن يتحمل المجتمع الأمريكى العظيم أوزارا لم يرتكبها ويدافع عن مشروع جلب لبلاده الإحراج حيث ثبت أن الموارد الدبلوماسية الأمريكية قد استغلت ليس فقط لخدمة المصالح الإسرائيلية وإنما أيضا للإضرار بالمصالح الأمريكية، وقد آن الأوان للتحالف بين الشعوب العربية والشعب الأمريكى لمساعدته في التعرف على مصالحه الحقيقية وخدمتها وهجر المصالح الموهومة.

اعلم أن الخلط بين المصلحة الإسرائيلية مطلق تعمقه إسرائيل كل يوم وتجد فى تأكيده قضية حياة أوموت، ونحن في العالم العربى يجب أن نعتبر منطلقنا أيضا هذه القضية الخطيرة وأن نثبت للولايات المتحدة بالمنطق والعقل كيف أن المصلحة الصهيونية قد طغت على المصلحة الأمريكية الحقيقية.

*الركيزة الثالثة:*

أننا لا نتوسل إلى الولايات المتحدة ولا نتبرع لها بالنصيحة وإنما الخط الدبلوماسى العربى فى هذا الاتجاه يجب أن يتسم بشجاعة الطرح وذكاء الأداء معلنًا تفاصيل المصالح الأمريكية وحرص العالم العربى نفسه على خدمتها طمعًا فى المقابل وهو مراعاة المصالح العربية وليس خوفًا من إسرائيل.

لقد أدخلت إسرائيل فى روع المجتمع الأمريكى الكثير مما يجب تصحيحه ليس بمنطق المدافع والمتوسل وإنما الصديق الواثق الذى يعرض صداقته الحقيقية الواضحة فى ثبات، وليس بمنطق إما نحن وإما إسرائيل، فهذا المنطق لا تتبناه سوى السياسات العاجزة في هذا العصر.

وختامًا فإن مقومات هذه الدبلوماسية الجديدة واضحة وفرص نجاحها تتطلب جهد العالم العربى كله وجامعته العربية ومراكز بحوثه ومفكريه، وليكن هذا العقد هو عقد الصداقة العربية الأمريكية وهو إلى ذلك جزء من خطة أمنية لاستئصال الإرهاب وتفادي الخلط بين الإرهابى والبرىء ذى القضية العادلة. ولتكن روح هذه الدبلوماسية هى بناء مستقبل مشرق للعالم كله، وليست حركة جديدة من حركات الصراع العربى الصهيونى.

ولكن هذه الخطة تحتاج إلى عقول قادرة وأيد قوية وعزائم جسورة لا أظن أن عالمنا العربى الواسع يفتقر إليها.